مقال

٤٧

* د. سرى نسيبه *

هربرت ماركوزه والميتاماركسية

مقدمة

نستطيع تلخيص نظرية ماركوزه فى النقد الاجتماعي كالاتى : بعكس ما كان يتصوره كارل ماركس ، فان الطبقة العاملة فى اطار النظام الرأسمالى المتقدم عاجزة عن القيام بدورها التاريخى لتغيير هذا النظام ، ما لم تحثها على ذلك حركات هامشية يختلف انتماؤها الطبقى ، وتتصف بتحررها من الاستبداد الفكرى الذى يتمثل بنمط من الفكر ذى البعد الواحد ، والذى يسود المجتمع فى شتى الاشكال والمجالات .

فهو يقول :

« ان الطبقة العاملة ، وبدون ان تفقد دورها التاريخى كالعامل الاساسى فى التغيير ... تتخذ موقفا مهدئا ومتحفظا ، وتقوم عوامل من الخارج بعملية التأثير فى التغيير » (١) .

ويعتقد ماركوزه بأن السبب الرئيسى لكون الطبقة العاملة عاجزة بنفسها عن القيام بدورها التاريخى هو فقدانها ذلك الوعى السياسى المتطلب وجوده عندها حتى تكون قادرة على ايجاد مثل ذلك التغيير .

فهو يقول :

« ان الثورة ليست مطروحة على جدول الاعمال . ففى ظلال الشركات الرأسمالية لا يتحد العاملان التاريخيان للتغيير مع بعضهما البعض ، وهما العامل الموضوعي والعامل الذاتي ، بل يتواجدان فى مجموعات مختلفة من الناس ، وحتى فى مجموعات معادية لبعضها البعض . فالعامل الموضوعى ، اى القاعدة الانسانية لعملية الانتاج التى تديم وجود المجتمع القائم ، فهو موجود فى طبقة العمال الصناعية — المصدر الانسانى لاستغلال ومخزنه . واما العامل الذاتى ، اى الوعى السياسى ، فهو موجود عند طبقة المثقفين اللاانتمائيين الصغار » (٢) ..

فان عنينا بعبارة « الميتاماركسية » تلك النظرية الاجتماعية التى تتكون موضوعات علمها من عوامل خارجة عن الاطار التى تعنى به الماركسية ، وهى مع ذلك تتخذ الماركسية كنقطة انطلاق للبحث فى مجالها الجديد ، تكون نظرية ماركوزه فى النقد الاجتماعى نظرية ميتاماركسية . فبينما هو يقبل بالتحليل الاقتصادى الديالكتيكى (الجدلى) لتطور المجتمعات الانسانية من جهة ، يرى حاجزا موضوعيا يقف امام ذلك التطور فى المجتمع الرأسمالى المتقدم من جهة اخرى . وبما انه يعالج ماهية ذلك الحاجز وكيفية تخطيه ، فهو اذن يعنى بعوامل ومواضيع لم يتطرق لها كارل ماركس بالرغم من كونها مستكملة ، وعلى حد رأيه ، للنظرية الماركسية (عند كارل ماركس) .

يعنى ماركوزه اذن بمشكلة لم تطرح نفسها عند ماركس ، وهى مشكلة وجود حاجز فكرى فى المجتمع الرأسمالى المتقدم ، يحول هذا الحاجز دون التفاعل الديالكتيكى بين الطبقات الاساسية فيه ، ويحول اذن دون تغيير المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى . وفى هذه المقالة سوف اقسم عرضى لنظرية ماركوزه الميتاماركسية الى قسمين . ففى القسم الاول سوف احاول ان اعرض نظريته العامة بشان ذلك الحاجز الفكرى . وفى القسم الثانى سوف احاول انتقاء حقل معين (الفلسفة الحديثة) كمثل لكيفية تطبيق نظرية ماركوزه العامة على حقل خاص .

أ — على حد رأى ماركوزه ، فان المجتمع الرأسمالى المتقدم يسوده ما يسميه بـ « بعد واحد فى التفكير » . واستعمال ماركوزه لهذا التعبير يساعدنا فى تصور ما يعنيه : فان عدم وجود اكثر من بعد واحد فى التفكير ينفى امكانية وجود تناقض او تضاد او حتى مجرد اختلاف جذرى فى التفكير بين الفئات البشرية المختلفة التى تكون المجتمع الرأسمالى المتقدم . ووجود بعد فكرى واحد فى هذا المجتمع يعكس توافقا والتئاما فكريا بين الفئات الاقتصادية المختلفة فى المجتمع . هذا ، بالرغم من ان هذا التوافق والالتئام الفكرى لا يعكس الحقيقة الاقتصادية الموجودة فى المجتمع — تلك الحقيقة (تناقض المصالح الاقتصادية) التى ، لو لم يوجد هذا البعد الواحد الفكرى ، لكانت سوف تؤدى حتما الى قيام الطبقة العاملة بالثورة لتغيير اسس هذا المجتمع . فان افراد الطبقة العاملة (فى المجتمع الرأسمالى المتقدم) على حد رأيه يشاركون مرؤوسيهم الرأى بافضلية مجتمعهم وبسوء الانظمة السياسية الاقتصادية البديلة . ومع انهم يسعون دوما لتحسين اوضاعهم المعيشية العامة والمالية الخاصة ، الا انهم يصبحون اكثر اندماجا ، واقل اغترابا ، كلما لقوا من الاجهزة التى يعملون بها تجاوبا لمطالبهم ، مهما كانت درجة ذلك التجاوب . بل ان النظام السياسى الذى يسهم بهذا التفاعل الايجابى بين افراد الطبقة العاملة وافراد الطبقات المتملكة او البرجوازية ، يزداد ثبوته ، ويكثر قبوله عند افراد المجتمع ، الذين يلقون مردودا ماديا لتحركاتهم المنظمة فى ضمن اطار الاجهزة المختلفة التى لا يقبل فقط بوجودها هذا النظام السياسى ، انما يسعى لاستحداثها وايجادها فى سبيل ارضاء مختلف فئات المجتمع .

ولنعط مثالا على ما يعنيه ماركوزه بهذا الصدد (٣) . فان عاملا

ما في مصنع ما قد تحثه حالته الشخصية للتعبير عن مأساة الطبقة العمالية العامة ، بقوله مثلا بأن اجور العمال متدنية . وحين يعبر عن رأيه هذا يكون يتكلم ليس فقط عن حالته الشخصية ، بل عن اشياء كثيرة اخرى ، كالوضع المعيشي العام عند الطبقة العمالية ، وكالفارق المجزي بين الطبقات ، واشياء شبيهة لهذه الا ان المجتمع التقني قد اوجد وسائل ((عالمية)) مختلفة للنظر في مطالب العمال وفي مشاكلهم ، فالباحث الاجتماعي الذي ينظر في تذمر هذا العامل ، يكتشف مثلا بأن زوجة العامل المعني قد اضطرت للدخول الى المستشفى للمعالجة ، وان زوجها لا يملك القدرة المالية لتكلف هذه المصاريف الجديدة . فيحول هذا الباحث تذمر العامل العام الى تذمر بصدد مشكلة خاصة (المصاريف الجديدة) ، ويستطيع المصنع الذي يعمل به هذا العامل حل هذه المشكلة الخاصة بوجه يرضي العامل ويرضي ايضا ((القيم الخلقية)) التي توجد عند اصحاب المصنع . فبالطريقة هذه ، تحول التذمرات العامة ، والتي تعكس حقيقة الوضع الاقتصادي ، الى تذمرات بصدد مشاكل خاصة لا تعكس حقيقة الوضع الاقتصادي ، بل تعكس فقط حقيقة مالية خاصة من السهل ايجاد حل لها يرضي جميع المعنيين بالامر . وبالطبع فان المصنع ((لا يقوم بعمل هذه الدراسات بغية تمويه حقيقة الامر عند العامل ، بل انطلاقا من رغبة حقيقية وصادقة لحل مشاكله)) . وبهذا المعنى ، فان العامل يصبح مؤمنا برغبة المصنع ((الصادقة)) لحل مشاكله ، ويصبح مؤمنا بالوسائل العلمية التي يستخدمها المصنع للنظر في هذه المشاكل . أي ان العامل يجذب فكريا من موقف معاد للنظام بأكمله ، الى موقف مساند لهذا النظام الذي يعمل جاهدا لحل مشاكله الخاصة (!!)

وبينما يسعى هذا النظام السياسي جاهدا في ايجاد مختلف انواع الوسائل والاجهزة التي تستطيع طبقة العمال من خلالها العمل لتحسين اوضاعها المعيشية والمالية ، يطرأ كذلك تطور جذري على نوعية الاعمال التي يقوم بها افراد الطبقة العاملة (في المجتمع الرأسمالي المتقدم) ، يعكس هذا التطور التقدم الملموس في المجال التقني في هذا المجتمع . فالمجهود الجسدي الذي يبذله العامل في عمله ينقص شيئا فشيئا ، ويستبدله مجهود ذهني (القدرة على ضبط الآلات المتقدمة) ، شبيه بذلك المجهود (من الناحية النوعية) الذي يبذله رؤساء هؤلاء العمال . فتعكس طبيعة هذا العمل الجديد طبيعة الآلات التي يشغلها العامل في المجتمع الرأسمالي المتقدم ، تلك الآلات التي تحرر العامل زمنيا (يستطيع قضاء وقت اقل لانتاج منتوج اكبر) وجسديا (يستطيع بذل جهد جسدي اقل لانتاج مردود اكبر) ، وتجعله قادرا على استيعاب منتوجات حضارة مجتمعه ((التثقيف)) ، الترفيه ، الخ) والاستمتاع بها ، والعيش بطريقة سعيدة وراضية .

ثم انه ، وبخلاف الحال في القرون الماضية وفي مجتمعات أخرى ، يقف العامل امام معروضات حضارته الترفيهية والتثقيفية التي تكون متوفرة لديه ولجميع أفراد فئات المجتمع المختلفة (برامج التلفزيون ، الكتب والمجلات المتناثرة ، الاذاعة ، وسائل الترفيه الرياضية والريفية ، الخ) بشكل متساو . وتكوّن هذه المعروضات الحضارية ، وبشتى انواعها واشكالها ، الاطر الفكرية العامة التي توجد عند افراد هذا المجتمع ، اذ ان الافكار التي تبث عبرها هي الافكار الوحيدة المتوفرة في هذا المجتمع ، ويتلقفها اعضاء هذا المجتمع بشكل نوعي واحد وان تفاوتت درجاته عند الناس . فينشأ اذن هنالك نمط موحد من التفكير يشارك به جميع افراد الفئات الاقتصادية في المجتمع ، وعلى وجه الخصوص جميع افراد الطبقات الاقتصادية في هذا المجتمع . ثم ينتشر هذا النمط الموحد في التفكير في جميع ارجاء الحقول الفكرية ، كالعلوم والآداب (باستثناء الفنون والشعر والقصص الخيالية ، الخ) على مختلف اشكالها ، فنراه متمثلا بالفيزياء (٤) وبالفلسفة (٥) وبغيرها من العلوم . ويتمثل هذا النمط الموحد في التفكير ، أو البعد الواحد في التفكير كما يسميه ماركوزه ، بالفكرة القائلة بأن الحقيقة ليست هي الا ما هو موجود ، وان ما يعالج الموجود يتصف بالعقلانية ، بينما يتصف بالغيبية كل ما هو غير موجود (٦) والذي يعنيه ماركوزه بقوله هذا هو ان معاني الكلمات المتداولة في المجتمع (٧) تكتسب صفة استعمالية لا تعلو الى عالم التجريد ، بشكل لا يتيح المجال لهذه الكلمات بأن تكون لها معان ليست هي ما توجد لها فعلا في اطار المجتمع المطروح . فان اردنا ان نكتشف حقيقة الدمقراطية ، أو حقيقة الحرية ، ليس علينا الا ان ننظر الى ما تعنيه هذه الكلمات في مجتمعنا المطروح ، وتكون كل محاولة زائدة على هذه ما هي الا ضرب من ضروب الغيبية واللاعقلانية . وبمعنى آخر ، فان الذي يقوله ماركوزه هو انه ينشأ هنالك اجماع لما تنطوي عليه الافكار ، يعكس هذا الاجماع ايمان افراد هذا المجتمع بأفضليته ، ايمانهم بتقنيته التي توفر لهم ما يحتاجونه ، وايمانهم بعقلانية وسائله العلمية التي توجه نفسها البحث فقط في المادیات الواقعية (كانت هذه طبيعية ، او لغوية ، أو نفسانية و ما اشبه ذلك) . فيجمع الجميع مثلا على ما بالامكان وصفه بانه دمقراطي ، او على ما بالامكان وصفه بانه مجتمع حر ، ويتفق الجميع بتسمية الحرية غير الموجودة ((حرية غيبية)) أو ((حرية مثالية)) ، أو بتسمية الدمقراطية غير الموجودة ((دمقراطية غيبية)) ، أو بتسمية السعادة غير الموجودة ((سعادة مثالية أو غيبية)).

فتقنية المجتمع الرأسمالي المتقدم تعالج فقط الموجود المادي ، وتتصف وسائل هذه التقنية ومناهجها بالعقلانية ، ثم توفر هذه التقنية وهذه العقلانية كل اسباب الراحة لافراد المجتمع ، الذين يبدأون بالايمان بأفضليتها ، وينتهون بالايمان بالمناهج العقلانية المطروحة ، التي هي بدورها تستثني كل مغزى للافكار ليس له ما يطابقه فعليا في المجتمع ، وتنفي اذن عقلانية العمل نحو ايجاد تلك المغازي والمعاني التي تصبح متصفة بالمثالية والغيبية . ويتغلغل هذا النمط في التفكير (العقلانية ـ الحقيقة ـ الموجود في المجتمع) في بيولوجية الانسان أي في تركيبه المادي (٨) ، حتى يصبح افراد الطبقة العاملة في حاجة لقدوم الثورة على هذا النمط الموحد في التفكير لكي تحررهم من هذا الاستبداد الفكري ،في الحين الذي كان هذا التحرر الفكري متطلبا وجوده عند افراد هذه الطبقة ان هم كانوا سوف يقودون الثورة على النظام القائم .

فبشكل عام اذن ، يكتسب الفرد في المجتمع الرأسمالي المتقدم ، ومهما كانت عضويته الطبقية ، نمطا من الوعي والتفكير الذي يجعله يؤمن بأفضلية مجتمعه على المجتمعات الاخرى ، ويصبح

(البقية على ص ٤٣)

ذلك النمط جزءا لا يتجزأ من تركيبه البيولوجي ، لدرجة ان يصبح ممثلا عن النظام الذي يعيش به ، وذائدا عنه ، ومعاديا لتلك الفئات الهامشية (اللا انتقائيون ، المثقفون ، الطلبة ، الفئات العنصرية المتخلفة في ذلك المجتمع) التي لم ينجح استيعابها كليا في هذا النظام البيولوجي ، والتي قد تقوم بأعمال لتغيير الوضع السياسي والاقتصادي العام (المظاهرات غير المشروعة ، الاعتكالات غير النقابية ، المواجهات العنصرية ، الخ) في سبيل المصلحة الحقيقية . والحرية الحقيقية ، والسعادة الحقيقية ، لافراد الطبقة العاملة انفسهم ، ولغيرهم من الفئات المستغلة .

وانقسام العالمين الموضوعي (القاعدة السكانية) والذاتي (الوعي السياسي) عن بعضهما البعض ، وتواجدهما في فئات مختلفة من الناس تعادي بعضها البعض ، يعني ان الثورة في النظام الرأسمالي المتقدم لن تحصل من قبل الطبقة العمالية ، بمعنى ان الطبقة العمالية لن تستحدثها ولن تكون بطليعتها . ومع ان ماركوزه اعتقد في وقت ما أن الثورة آتية لا محالة وذلك حين التوصل الى مرحلة في التقدم التقني الرأسمالي حيث تكون امكانيات هذا المجتمع الرأسمالي في خدمة الافراد قد استنفدت كليا (٩) ، اصبح يعتقد في وقت لاحق بأن لا حتمية في الموضوع ، وان ما يوجد هو امل فقط في ان تقود الفئات الهامشية طبقة العمال للثورة ، وان تحرر تلك الفئات طبقة العمال من السجن الفكري ـ البيولوجي لكي ينشأ هناك مجتمع تتواجد فيه الحرية الحقيقية للانسان (١٠) .

وباختصار فان وجود بعد فكري واحد في المجتمع الرأسمالي المتقدم ينفي وجود الوعي السياسي اللازم عند الطبقة العمالية ، وتصبح الثورة في هذا المجتمع متطلبة لايجاد هذا الوعي السياسي . وللتخلص من هذا الدور ، فان الفئة الوحيدة التي باستطاعتها استحداث الثورة هي الفئة اللاانتقائية في المجتمع ، أي الفئة التي لا تعاني من الكبت الفكري ذي البعد الواحد .

***

ب ـ ينتشر التفكير ذو البعد الواحد في جميع ارجاء الحقول الفكرية في المجتمع ، كالفيزياء والفلسفة ، وهذا التفكير يعتمد على القاعدة القائلة بأن حدود العقلانية تبدأ وتنتهي في المرئيات ، وبأن كل ما لا يلتزم بهذه الحدود ليس الا ضربا من ضروب الميتافيزيقية او الغيبية . فالمنهج العقلاني هو الذي يلتزم بالحقيقة التي هي الوجود وكل ما يتخطى الوجود لا يكون حقيقة ، ولا تكون معالجته الا معالجة لا عقلانية (١١) .

وتتسم الفلسفة الحديثة (فلسفة اللغة الانجلو ساكسونية) على حد رأي ماركوزه بنفس هذا الطابع ، أي بطابع البعد الواحد في التفكير ، بمعنى انها تلتزم بالحدود الوجودية في منهجها ، ولا تقبل تخطي هذه الحدود لمستويات او ابعاد اخرى .

يقول ماركوزه (١٢) :

« ان معاملة اوستن (١٣) البغيضة لكل ما هو مغاير للاستعمال العامي للكلمات ، واستنقاصه ما قد يجول بخاطر المرء وهو جالس على مقعده في الامسيات ، وتأكيد فيتجنشتاين (١٣) بان الفلسفة تترك كل شيء على ما هو عليه ـ كل هذه تمثل ، وبرأيي ، احتقارا سادو ـ ماسوكيستيا للذات ، واستذلالا للمثقف الذي لا ينتج عن عمله نتائج علمية او تقنية او ما شابه ذلك . ان تأكيد هذا التواضع والاعتقاد يبدو وكأنه يلتقط احساس هيوم بالقناعة المحقة بالحد للعقلانية ، ذلك الحد الذي يحمي الانسان من مخاطر المغامرات الذهنية العقيمة ، والذي يتركه قادرا على ادماج نفسه بالبيئة المحيطة به ، أن هو ادركه . اه ان هيوم ، حين تخلى عن الجواهر (١٤) ، كان يقاتل ايديولوجية قوية ، بينما يحاول خلفاؤه اليوم اعطاء تبرير عقلاني لما كان المجتمع قد فرضه منذ زمن بعيد ـ أي استنكار كل نمط للتفكير يخالف اطر العالم اللغوية » .

فبرأي ماركوزه ، توجه الفلسفة الحديثة (= العقلانية) كل اهتمامها للاستعمال العامي للكلمات (= الموجود) في سبيل اكتشاف ما تعنيه تلك الكلمات (= الحقيقة) . فيكون معنى « الحرية » الحقيقي ليس شيئا افلاطونيا في عالم الغيب ، بل شيئا ماديا في عالم الوجود (المواضع التي تستعمل بها الكلمة في المجتمع المطروح ، الاوصاف المادية لتصرفات الفرد او لطبيعة العلاقات التي يقال عنها انها حرة ، الخ) . فالفلسفة الحديثة ، بدل من ان تخوض عالم الفرضيات والتأملات بحثا عن حقيقة السعادة ، تدرس المواضيع التي يستعمل بها عامل المصنع عبارة « انا سعيد » او « اشعر بالسعادة » ، وهي لذلك السبب لا تجد سعادة مغايرة لتلك السعادة التي يشعر بها فعلا عامل المصنع ، ولا حرية مغايرة لتلك التي يمارسها فعلا عامل المصنع ، وتنفي اذن امكانية وجود شيء يسمى بـ « السعادة الكاذبة » او « الوعي الكاذب » ، اذ ان امكانية وجود مثل هذه السعادة ، او مثل هذا الوعي ، مشروط بوجود سعادة حقيقية او حرية حقيقية او ديموقراطية حقيقية ليست في حيز الوجود . فالسعادة الكاذبة كاذبة فقط لانها مغايرة للسعادة الحقيقية ، والوعي الكاذب كاذب فقط لانه مغاير للوعي الحقيقي ، فان لم توجد هنالك حقائق ما بعد حيز الوجود لن تكون هنالك سعادات كاذبة وحريات كاذبة ، الخ . والفلسفة الحديثة ، وبما انها تنفي الحقائق غير الوجودية ، تنفي ايضا امكانية وجود سعادة كاذبة ، وتؤكد ان السعادة هي السعادة الموجودة فعلا ، وهي بذلك تؤكد وجود الحرية والديمقراطية والعدالة وغيرها في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، اذ انها تنفي ان تكون هنالك مدلولات لهذه الكلمات ليست موجودة اصلا . وهذا هو المعنى الذي يعنيه ماركوزه حين يقول بأن خلفاء هيوم يحاولون اعطاء تبرير عقلاني للحقيقة التي يفرضها المجتمع (الوضع الاقتصادي) .

اذن فالفلسفة الحديثة ، والتي تحدد الاشياء استنادا الى المستوى الوجودي فقط ، تعاني بارتباطها هذا من البعد الواحد الفكري . وهذا التحليل يدلنا فورا على ما يعنيه ماركوزه بـ « التفكير ذي البعدين » او بـ « التفكير ذي الابعاد المختلفة » . فكلمة « الحرية » لها مدلول حاصل ، والتشبث به يعني الارتباط ببعد واحد في التفكير . الا ان لها مدلولا ليس حاصلا ، والنظر فيه (بالاضافة الى النظر في مداولها الحاصل) يعكس تفكيرا في بعدين . وان ذكرنا هذا التمييز (بين الموجود والغائب) بثنائية افلاطون ، فليس هذا بالشيء الغريب ، اذ ان ماركوزه نفسه يعطينا نظرية افلاطون كمثل لما يعنيه بالتفكير ذي البعدين (١٥) . الا ان ماركوزه لا يقر بالمثل الافلاطونية ، بل يقر بشيئين هما :

١ ـ يوجد فرق بين الفعل والقوة (الحاصل والممكن) بالنسبة

لكل شيء من الموجودات .

٢ ـ تتكون امكانية الشيء من خصائصه التاريخية (بما فيها تلك التي قد وجدت في وقت ما) ومن تلك الخصائص ايضا التي بالامكان ايجادها فيه بالمستقبل .

فهو مثلا يقول (١٦) :

« توجد هنالك فئة كبيرة من المعاني ... حيث تتسم العلاقة الكمية بين الكلي والجزئي بصفة كيفية ، وحيث تبدو الكليات المجردة وكأنها تدل على امكانيات مجسمة وتاريخية . فكيفما حددنا « الانسان » ، « الطبيعة » ، « العدالة » ، « الجمال » ، او « الحرية » ، تكون تلك الحدود تجمع ما بين مضمون التجارب (من جهة) ، والافكار التي تسمو فوق تلك التجارب باشكالها الفعلية ، والتي تعتبر تلك الامثلة (أي الاشكال الفعلية) كأشياء يجب التغلب عليها (من جهة أخرى)، فمعنى الجمال يحتوي على جميع الجمال الذي لم يتشخص للان ، ومعنى الحرية يتضمن كل تلك الحريات التي لم تتحقق للان » .

ثم يردف قائلا (١٧) :

« هذه الكليات تبدو كأنها ادوات فكرية تستعمل لتفهم الاحوال الخاصة للاشياء في ضوء امكانياتها . وهي تاريخية وما فوق التاريخية معا ؟ فهي تتضمن المادة التي يحتوي عليها عالم التجارب ، كما وتتضمن هذه المادة في ضوء امكانياتها وفي ضوء كبتها ونفيها » .

فباستطاعتنا اذن ان نميز ما بين ثلاثة مستويات في المعاني (ابعاد) عند ماركوزه ، او ثلاثة انواع من المكونات لمعنى كلمة معينة :

١ ـ المكون التاريخي ـ وهو ما عنته الكلمة عند الناس في الماضي .

٢ ـ المكون الحاصل ـ وهو ما عنته الكلمة عند المجتمع القائم .

٣ ـ المكون الممكن ـ وهو ما تعنيه الكلمة مما هو ليس تجربة تاريخية او واقعا حاصلا .

وانتقاده للفلسفة الحديثة مبني على اساس انها لا تأخذ المكون الثالث بعين الاعتبار .

ويربط ماركوزه مفهوم المكون او الجزء الثالث من معنى الكلمة بالتمييز اليوناني (عند افلاطون وارسطو) بين القوة والفعل (١٨) الذي هو تمييز بين الشيء على ما هو عليه ، والشيء كما يمكن وافضل له ان يكون عليه (١٩) . وتعريف الشيء الذي لا يأخذ بعين الاعتبار امكانياته المستقبلية يكون تعريفا ناقصا ، بل خاطئا ان هو نفى « وجود » تلك الامكانيات . وبذلك ، فان الفلسفة الحديثة التي تعرف « الديموقراطية » مثلا بالاستناد الى البعد الوجودي فقط ، والتي تنفي « وجود » البعد الامكاني ، هي فلسفة قاصرة ، بل مخطئة .

فيقر ماركوزه اذن بوجود المعاني المجردة ، والتي تفارق المعاني الافلاطونية لكونها جزئيا على الاقل مرآة تعكس التجارب الانسانية التاريخية ، والتي تشابه المعاني الافلاطونية لكونها جزئيا ايضا تصورات لما لم يكن عليه الامر ابدا ، وكما قد لا يكون عليه الامر في المستقبل بتاتا (اذ هو لا يؤمن بحتمية التطور الى الافضل ، ويؤمن فقط بامكانيته) . ثم يتفق مع افلاطون بقبوله للتمييز ما بين صفتين في كل شيء ، صفة موجودة وصفة ممكنة .

وبغض النظر عما اذا كان تقييم ماركوزه للفلسفة الحديثة صحيحا (٢٠) فان موقفه تجاهها يعكس برأيي ميتافيزيقية الميتاماركسية بشكل واضح . فانه وبتقبله ثنائية الممكن والموجود ، وباصراره على تعدي حاجز الواقع الى ما وراءه من التجريديات ، ينفي من ناحية حتمية الديالكتيك الاقتصادي الذي لا يستند الا الى المادية ، ويؤكد من ناحية اخرى ايديولوجية الغيبيين (البرجوازيين والارستقراطيين القدماء) الذين يتمسكون بمفاهيمهم المجردة عن عالم الواقع . ومع انه لا يرجع بنا الى مثالية افلاطون . الا انه يرجع بنا الى ايديولوجية الفلاسفة الالمان (٢١) : ومع انه يزعم التمسك بالمبادىء الماركسية ، الا انه ينفي هذه المبادىء بنفيه لحتمية الديالكتيك الاقتصادي الذي ينتج عنه التطور في النظام السياسي تبعا لاعتبارات اقتصادية . نعم هو لا ينفي الدور الاساسي للطبقة العاملة في هذا التغيير الاجتماعي ، الا انه لا يعتقد ان الطبقة العاملة قادرة على القيام بمثل هذا الدور بنفسها ، وتبعا لمصالحها الاقتصادية ، بل هي بحاجة للفئات البرجوازية (الطلبة والمثقفين) لقيادتها ، ولتسلم زمام الثورة الى ان يتحرر العامل من سجنه الفكري . وليس هو بهذا المنطلق لينينيا ، اذ ان الفئة الصغيرة التي تتحمل مسؤوليات الثورة عنده هي فئة لا تتوافق مصالحها واعتقاداتها وافكارها وتطلعاتها مع مصالح واعتقادات وافكار وتطلعات افراد الطبقة العاملة ، بل هي فئة « غريبة » عن المجتمع ، تعمل ليس من اجل مصالح طبقتها الاقتصادية ، بل ضدها ، ومن اجل مثلها ، ومن اجل اشياء لا يفهمها بقية الناس . ونجاح مثل هذه الثورة عنده هو شيء ممكن فقط ، وليس الا عبارة عن وميض امل ، ليس شيئا يفرضه الواقع المادي ، والتاريخ الاقتصادي .

***

الملاحظات

١ ـ مقالة في التحرر ، هربرت ماركوزه ، نشر في كتب بيليكان (سافوك ، بريطانيا : ١٩٧٢) ص ٦٠ . سوف يشار الى هذا الكتاب فيما بعد فقط بعبارة مقالة .

٢ ـ مقالة ، ٦١ .

٣ ـ انظر الانسان ذو البعد الواحد ، هربرت ماركوزه ، دار النشر : راوتلدج وكيغان بول المحدودة (لندن : النشرة الثانية ، ١٩٦٨) ص ١٠٨ وما يتبع . سوف اشير الى هذا الكتاب فيما بعد فقط بعبارة الانسان .

٤ ـ الانسان ، ١٤٦ وما يتبع .

٥ ـ الانسان ، ١٧٠ وما يتبع .

٦ ـ انظر بشكل خاص الانسان ، ١٢٣ وما يتبع .

٧ ـ الانسان ، ٨٤ وما يتبع .

٨ ـ مقالة ، ١٧ ـ ٣٠ . انظر بشكل خاص الى ص ٢٧ ، حيث يطرح ماركوزه مشكلة الدور بين الثورة التي سوف تحقق التحرر الفكري من جهة ، والتحرر الفكري المتطلب وجوده لتحقيق الثورة من جهة اخرى . ويرى ماركوزه ، فان هذا الدور يشكل العقدة الاساسية في حتمية الصراع الطبقي ، التي لا تستطيع طبقة العمال حلها (لكونها ضحية لاستبداد البعد الفكري الواحد) .

٩ ـ الانسان ، ٢١٨ ـ ٢٥٧ .

١٠ ـ مقالة ٧٤ . كما نعلم جميعا ، فلقد وصلت شهرة ماركوزه اوجها خلال الهبة الطلابية في بلدان متعددة في اواخر الستينات ، اذ انه شارك الحركة الطلابية العالمية اعتقادها بانها هي التي تستطيع القيام بدور الشعلة لوقد نار الثورة في البلدان الرأسمالية .

١١ ـ الانسان ، ١٢٣ وما يتبع .

١٢ ـ الانسان ، ١٧٣ .

١٣ ـ يعتبر جون اوستن ولادفيج فيتجينشتاين الرائدين الاولين في فلسفة اللغة الحديثة التي نشأت في جامعتي اكسفورد وكامبردج في بريطانيا . ويقابل عداء ماركوزه لهذه المدرسة الفلسفية عدم اعتراف افرادها به . فبعد وفاته بزمن قصير قبل مدة وجيزة ، سئل فيلسوف اكسفورد ستيوارت هامبشر في مقابلة تلفزيونية عن تقديم فلاسفة اكسفورد لهربرت ماركوزه . فرد هامبشر قائلا بما معناه انهم لا يقيمونه بالمرة ، أي انهم لا يعترفون بوجود فلسفة عنده .

١٤ ـ تستعمل « الجواهر » هنا بالمعنى الارسطي ، أي ذلك الشيء الذي تقوم به الاعراض . ونفي الجواهر يلزم عنه نفي الاعراض كذلك ، وقد كان دافيد هيوم قد نفى وجود الاشياء موضوعيا في العالم الخارجي ، واستبدلها بانطباعات الحس ، حتى اصبح الشيء عنده ما هو الا سلسلة للانطباعات الحسية .

١٥ ـ الانسان ، ١٢٧ وما يتبع .

١٦ ـ الانسان ، ٢١٣ ـ ٢١٤ .

١٧ ـ الانسان ، ٢١٥ .

١٨ ـ الانسان ، ١٢٧ وما يتبع .

١٩ ـ الانسان ، ١٣٣ وما يتبع .

٢٠ ـ واقع الامر انني اشعر بأن تقييمه لفلسفة اللغة خاطىء من عدة نواح . ففلاسفة اللغة الاولون (اختلافا عن الفلاسفة اللغويين المتأخرين وعلم الفلسفة اللغوية عموما) لم يبتوا ابدا بأن كل ما يستحوذ اهتمام الفلسفة يجب ان يتحدد باستعمال المتكلمين لكلماتهم ، بل اشاروا الى ان النظر المدقق في هذا الاستعمال يجب ان يكون هو الاهتمام الاول عند الفلاسفة ، بمعنى اننا يجب ان نعرف تماما كيف نستعمل كلمة « الحرية » قبل ان نبت في معناها .

ومن ناحية ثانية ، فلا اظن ان ربط ماركوزة بين « المستعمل » و « الموجود » ربط دقيق ، اذ اننا نستعمل كلمة « الحرية » في بعض المواضيع لنعني بها اشياء غير موجودة . وبمعنى اخر ، فاننا قد نستعمل كلماتنا لندل بها على اشياء غير موجودة ، الا ان الاستعمال نفسه موجود ، وهو الذي يصبح موضوعا البحث عند فلاسفة اللغة .

٢١ ـ انظر بحثه الايجابي في فلسفة هيجل ، العقلانية والثورة ، هربرت ماركوزه ، دار النشر : راو تلدج وكيغان بول المحدودة ، النشرة الثانية (لندن ، ١٩٦٩) .

(د. سري نسيبة ـ القدس)

* العدد الجديد من مجلة « الآداب » *

في العدد الجديد لمجلة «الآداب» الذي صدر في أواخر الشهر الماضي ، موضوعات متعددة تراوحت بين المقالة ، والمقابلة ، والقصة ، والقصيدة ، والنقد ، والعروض لبعض النتاجات الادبية الجديدة ، مع القاء الضوء على بعض النشاطات الثقافية في الوطن العربي .

في مجال المقابلة ترجمت رنا ادريس مقابلة لجان لوك لوغدي مع الروائي الالماني غانتر غراس .

أما في ركن الشعر فقد قدمت قصائد جديدة للشعراء : الدكتور حسن فتح الباب ، وعبد الرحمن عمار ، وابراهيم زعرور ، وحسين جليل ، وشاكر لعيبي ، ومحمد يوسف ، وليث الصندوق ، وعصام ترشحاني ، وعبد الزهرة زكي ، وعباس ابراهيم ، وتميم كنعان ، ونظيم ابو حسان .

وفي زاوية القصة القصيرة قدم الدكتور محمد المنسي قنديل قصة قصيرة بعنوان « المماليك يعودون خلسة » ، الى جانب قصة « الذهب الابيض » لخليل فاضل ، والتي قدمها الى المدرس المصري الفلاح الهلالي السنوسي . اضافة الى قصتين قصيرتين لكل من فيصل حاجم ونيروز مالك .

وفي العدد ايضا مقالة نقدية لمجاهد عبد المنعم مجاهد بعنوان « بحثا عن العقل خلف ستائر الاحساس » ، لمجموعة الاديب الراحل ضياء الشرقاوي « بيت في الريح » .

ومن مراسلي « الآداب » في الوطن العربي نشرت المجلة ثلاثة مقالات هي على التوالي من مصر والجزائر والمغرب .

وقد قدمت « الآداب » في صدر صفحتها الاولى مقدمة للدراسة التي وضعها الشاعر احمد عبد المعطي حجازي وهي بعنوان « عروبة مصر » ، التي ستصدر عن دار «الآداب» قريبا . وقد اشار في مقدمتها الى انها « ليست محاولة في اثبات عروبة مصر » بل « ما دمنا مصريين فنحن عرب . والسؤال الذي ينبغي طرحه هو : ماذا يترتب علينا من واجب بحكم انتمائنا لمصر » .